المحاضرة العاشرة

ابو جعفر هارون الرشيد

170 - 193 هـ / 786 - 809 م

التعريف بالرشيد

هو هارون الرشيد ، ابن المهدي القرشي الهاشمي ابو جعفر وامه الخيزران ام ولد . بويع له بالخلافة بعد وفاة اخيه الهادي في (شهر ربيع الاول عام 170 هـ / شهر ايلول 786 م) بعهد من ابيه المهدي وعمره خمسة وعشرين عاما .

ظهرت عليه ملامح النجابة والذكاء منذ صغره ، ولما اصبح شابا هم والده ان يرشحه للخلافة من بعده مباشرة ، وشجعته الخيزران على ذلك لانها كانت تؤثره على اخيه الهادي .

يعتبر الرشيد من اوسع الخلفاء العباسيين شهرة وقد تجاوزت شهرته الشرق ووصلت الى الغرب حيث تناولها المجتمع الغربي بالتحليل والدراسة وحاول بعض ملوك اوروبا التقرب منه واكتساب مودته .

لقد امتزجت في اخباره حقائق التاريخ بخيال القصص واتصف بمجموعة من الصفات الشديدة الاختلاف والتي قلما تجتمع في شخص واحد . فهو سياسي بارع فيه حزم المنصور وعنفه واساليبه مع مرونة واضحة وسخاء بالمال لاصطفاء الناس شديد الاهتمام بشؤون الرعية يطوف في الاسواق ويغشى المجالس متنكرا ليقف على احوال الناس شديد الاحساس حاد المزاج سريع التأثر يثور غضبا ويفرط في الانتقام وقد ترق عواطفه فيبكي ويظهر رحمة متناهية وعطفا كبيرا .

كان الرشيد يحب الشعر والادب و الفقه قرب الشعراء والمغنيين والادباء والفقهاء وأكرمهم ، وشجع حركة التعريب ويبدو انه كان ذا ملكة شعرية وادبية ، واتسمت جلساته الليلية بالمناقشات الفكرية الرفيعة .

والواقع ان هذه الصور المتباينة للرشيد كانت انعكاسا للعصر الذي عاش فيه ولتربيته التي تربى عليها ولطبيعته النفسية .

فقد كان عصره عصر بذخ وامعان في الحضارة بما توفر من موارد واموال وتقدم علمي وفلسفي . وتربي في بيئة مترفة ، ونشأ نشأة جهادية وقيادية .

يعتبر عصر هارون الرشيد العصر الذهبي لدولة الخلافة العباسية . فقد بلغت في عهده درجة لم تصل اليها من قبل فأصبحت مركز التجارة العالمية وكعبة رجال العلم والادب . اما شخصيته فتمثل تاريخ عصر اكثر مما تمثل تاريخ انسان .

الاوضاع الداخلية في عهد الرشيد

_العلاقة مع العلويين

اظهر الرشيد عداءا سافرا للعلويين وقتل العديد من اللذين نجو من واقعة فخ والتي نجا منها اثنان من زعماء العلويين هما ادريس بن عبد الله بن الحسن وقد ذهب الى افريقية واخوه يحيى الذي يمم وجهه شطر بلاد الديلم في المشرق .

اما ادريس فقد استقر في اقليم طنجة بالمغرب الاقصى ، وحظى بالتفاف البربر حوله واقام لنفسه دولة مستقلة هي دولة الأدارسة . وهي اول دولة علوية تنفصل عن جسم الخلافة العباسية .

هددت هذه الدولة النفوذ العباسي في شمالي افريقية لذلك قرر الرشيد القضاء عليها . انما تردد في ارسال جيش بفعل بعد المسافة وخشيته من امتداد نفوذ ادريس الى مصر وبلاد الشام ان تغلب هو على الجيش العباسي وبالتالي القضاء على دولة الخلافة العباسية .

فلجأ عندئذ الى الحيلة ليتخلص من ادريس ، ووقع اختياره على رجل مشهور بالدهاء هو سليمان بن جرير المعروف بالشماخ فاستخدمه لاغتياله وفعلا تمكن هذا الرجل من قتل ادريس بالسم في عام (177 هـ / 793 م) .

ويبدو ان موته لم يقض على دولة الادارسة فقد كان متزوجا من امة بربرية حملت منه فانتظر اتباعه حتى وضعت ، وكان مولودا ذكرا فأسموه ادريس . ولما بلغ الحادية عشر من عمره ولاه البربر امورهم وبايعوه بالخلافة . واضحى المؤسس الحقيقي لدولة الادارسة في المغرب .

ولما ازداد خطر هذه الدولة اقطع الرشيد ابراهيم بن الاغلب ولاية افريقيا ليقف في وجهها .

و اما يحيى فقد اشتدت شوكته في بلاد الديلم وقوي امره بما التف حوله من الاتباع ثم اعلن خروجه في عام (176 هـ / 792 م) فهدد سلامة الدولة واقلق بال الرشيد . ومما اعطى حركته قوة بعد المنطقة التي خرج فيها عن بغداد ومناعتها الطبيعية .

واستقر رأي الخليفة على القضاء على حركة يحيى فندب الفضل بن يحيى البرمكي لهذه الغاية ، الذي نجح في استمالته بعد ان حشره اثر انفضاض اتباعه من حوله فمال الى الصلح . وكتب له الرشيد امانا واستقبله في بغداد .

ويبدو ان الخليفة لم يطمئن الى نوايا يحيى فوضعه تحت رقابة الفضل بن يحيى . وقد اثر يحيى عليه حتى اطلقه بدون علم الخليفة وذهب الى الحجاز . ثم نمي الى الرشيد ان يحيى يدعو نفسه في الحجاز فوافق ذلك ما كان في نفسه فقبض عليه وسجنه ثم قتله .

اما الشخصية الاخرى التي قضت في عهد الرشيد فهو الامام موسى بن جعفر الكاظم (عليه السلام) . والواقع ان الرشيد كان يراقب تحركات العلويين في الحجاز ، وقد علم بالتفاف الناس حوله وانهم يحملون اليه خمس اموالهم ، وهذا يعني انهم يعتقدون بإمامته . فقبض عليه وسجنه ، وتوفي عام (183 هـ /799 م) مسموما في سجن صاحب الشرطة السندي بن شاهك في بغداد .

_حركة الخوارج

لم يكن الاضطراب الذي ساد بعض اجزاء دولة الخلافة العباسية ناشئا عن حركات العلويين وحدهم ، بل وجد فريق من المسلمين انكر على الخلفاء العباسيين استبدادهم وخروجهم من الاحكام الشرعية ، وهؤلاء هم الخوارج الذين نشطوا في عهد الرشيد في منطقة الجزيرة اعتبارا من عام (178 هـ / 794 م) بقيادة طريف الشاري وبسطوا هيمنة فعلية على ارمينيا واذربيجان وهددوا السواد في العراق على نهر ديالى ووصلوا الى حلوان .

اهتم الرشيد بأمر هذه الجماعة فأرسل قوة عسكرية في عام (179 هـ / 795 م) بقيادة يزيد بن مزيد الشيباني اصطدمت بها في حديثة الفرات على بعد فراسخ من الانبار وقضت عليها وعلى زعيمها .

_الاضطرابات في بلاد الشام

لم يخمد التطاحن القبلي بين مراكز القوى في بلاد الشام . وقد حدث في عام (176 هـ / 792 م) ان انفجرت الاوضاع في دمشق واستمرت زهاء عامين مما دفع الرشيد الى احداث تغييرات ادارية تناولت الولاة . لكن الامر لم يستتب الا على يد كل من موسى بن يحيى بن خالد في عام (178 هـ / 794 م) وجعفر بن خالد عام (180 هـ / 796 م) بعد تجدد الاشتباكات .

_ الاضطرابات في افريقيا

سادت الاضطرابات في افريقيا اعتبارا من عام (171 هـ / 787 م) بفعل خروج الخوارج وقادة الجند والبربر فأرسل الرشيد هرثمة بن اعين واليا على افريقيا و امره بقمع الانتفاضات وتوطيد الامن فنجح في مهمته ودخل القيروان و أمن الناس .

ويبدو ان الخلافات بين الفئات الاسلامية المتعددة كانت واسعة فتجددت القلاقل ولم يتمكن هرثمة كم رأب الصدع فعزله الخليفة بناء على طلبه في عام (180 هـ / 796 م) كما لم يتمكن الولاة الذين جاءوا من بعده من السيطرة على الموقف فاستغل ابراهيم بن الاغلب عامل اقليم الزاب في الجزائر

اليوم ، هذه الاوضاع القلقة وطلب من الخليفة توليته على افريقيا ووعده بتهدئة الوضع . استجاب الخليفة لطلب عامله وعهد اليه بالولاية على افريقيا في شهر (جمادى الاخرة عام 184 هـ / تموز عام 800 م) . ونجح ابراهيم في تحقيق الاستقرار متبعا في ذلك سياسة معتدلة وازدهرت افريقيا في عهده وشهدت حركة عمرانية واسعة ونشاطا اقتصاديا كبيرا . وقد مهد ابراهيم لقيام دولة الاغالبة التي ما لبثت ان استقلت عن الادراة المركزية في بغداد واتخذت القيروان حاضرة لها .

_ الاضطرابات في المشرق

اطلق الرشيد ايدي عماله على الاقليم ولم يتهمهم في تصرفاتهم . فاشتط بعضهم وكانوا سببا في قيام الانتفاضات الشعبية . وقد ظهر اثر ذلك في خراسان بشكل خاص . فقد اهتم ولاة هذا الاقليم بمصالحهم الشخصية وتطلعوا الى الاثراء واهملوا شؤون الرعية حتى ان بعضهم زاد الضرائب تعسفا .

ولعل اكثر الولاة جشعا هو علي بن عيسى بن ماهان الذي حكم خراسان مدة عشرة اعوام تميزت بالظلم الذي وقع على الناس حتى لم يعد باستطاعتهم احتمال المزيد .

وحصل في تلك الظروف ان خرج رافع بن الليث بن نصر بن سيار على الحكومة المركزية بسبب دوافع شخصية على الاغلب وتبعه كثير من سكان خراسان وبلاد ما وراء النهر بسبب كراهيتهم لسياسة العباسيين ، وكتب اليه اهل نسف بأن يوجه اليهم من يعينهم على الوالي العباسي .

نتيجة قيام هذه الحركة المعادية ، اضطر الوالي علي بن عيسى ان يدافع عن حكمه الا انه فشل في قمع الانتفاضة وانكشف امره امام الرشيد الذي عزله وصادر امواله وعين هرثمة بن اعين مكانه وأمره بإنصاف السكان ومعاملتهم بالحسنى .

ويبدو ان رافعا استغل هذه الاوضاع القلقة وجدد حركته المعادية للحكم العباسي فاضطر الرشيد ان يخرج بنفسه الى خراسان لوضع حد للاضطرابات فيها الا ان المنية وافته وهو في الطريق .

_ نكبة البرامكة

ظلت فكرة الثأر لمقتل ابي مسلم وتحقيق تطلعاته السياسية الكامنة في نفوس اتباعه الخراسانيين . وأخذت هذه الفكرة منهجا جديدا مع مرور الزمن يقضي بالسيطرة على دولة الخلافة العباسية من الداخل بعد فشل محاولات النيل منها من الخارج . وقد قام عدد من الوزراء العباسيين من اسر فارسية بتحقيق ذلك من اشهرها اسرة البرامكة وأسرة ال سهل والأسرة الطاهرية .

تنتسب اسرة البرامكة الفارسية العريقة الى جدها برمك ، وهو لقب اطلق على سادن معبد النوبهار في مدينة بلخ .

وبرز من هذه الاسرة في اوائل عهد دولة الخلافة العباسية خالد بن برمك من خلال مقدرته المالية والادارية ورجاحة عقله وبعد نظره فلفت اليه انظار المسؤولين العباسيين . فقلده السفاح ديوان الخراج وديوان الجند ، كما تولى وزارة التنفيذ بعد مصرع ابي سلمة الخلال وعمل مستشارا للمنصور ومشرفا على الشؤون المالية ولمع اسمه في بناء مدينة بغداد ، وهو بحكم منصبه اشترك في صنع القرارات السياسية وظلت له مكانته في عهد المهدي الذي ولاه مقاطعة فارس في عام (163 هـ / 780 م) .

انجب خالد رجلا يعتبر واسطة عقد الاسرة البرمكية هو يحيى وقد ارتبط تاريخه بتاريخ هارون الرشيد . تولى الكتابة له والنيابة عنه و وزارته . وقد ادى دورا بارزا في تأمين ولاية العهد له في مواجهه الضغوط الكبيرة التي مارسها المهدي بهدف تنحيته وتوليته ابنه جعفر بدلا منه .

والراجح ان يحيى ورث عن ابيه تطلعاته السياسية التي كانت ستتلاشى اذا ابعد هارون عن ولاية العهد . ولما بويع الرشيد بالخلافة حفظ ليحيى فضله فقلده وزارة التفويض ومنحه سلطات مطلقة فكانت الدواوين كلها بيده واجتمعت له الوزارتان كما خصه بامتيازات جديدة . فهو اول من أمر الوزراء وكانت الكتب التي تنفذ من ديوان الخراج تؤرخ باسمه ولم تكن تنفذ الا عن الخليفة .

واستطاع يحيى بمساعدة ولديه الفضل وجعفر ادارة دولة الخلافة العباسية مدة سبعة عشر عاما (170-187 هـ / 786-803 م) محققا بذلك نظرية المشاركة الكاملة في الحكم . وتعتبر هذه الفترة بحق فترة تألق البرامكة وعصرهم الذهبي .

اما الفضل فهو اخو الخليفة بالرضاعة عهد اليه الرشيد بالإشراف على تربية ابنه الامين وولاه عدة مناصب ادارية وقيادية وخاصة في المشرق حيث حقق نهضة اقتصادية وعمرانية ووطد الامن .

واما جعفر فقد اختص بمنادمة الرشيد وخدمته لسهولة طباعه فكان يلازمه ليله و نهاره . فهو اكثر البرامكة اتصالا به وكان يسميه اخاه ويدخله معه في ثوب واحد . ونتيجة لهذه الالفة وصل تأثير جعفر على الرشيد حدا بعيدا حتى غلب على خصوصياته ، فأشركه معه في المظالم وقلده مراقبة دور الضرب والطراز والبريد كما امر بكتابة اسمه على الدنانير والدراهم بمدينة السلام وبالمحمدية و اسند اليه ولاية المغرب من الانبار الى افريقيا بالاضافة الى خراسان وسجستان و طبرستان و أرمينيا و اذربيجان وطبيعي انه من موقعه هذا كان يوحي للرشيد بانتهاج سياسات معينة .

وبرز في صفوف البرامكة محمد بن خالد بن برمك الذي تولى حجابة الرشيد و موسى بن يحيى بن خالد الذي ولي الشام .

ويبدو ان هذا التوزيع في المناصب الكبرى في الدولة لم يكن عفويا . و الراجح ان البرامكة هدفوا الى احاطة الرشيد كي يتحكموا به او يتحرك من خلالهم كما نلاحظ ان معظم الرجال البارزين في الدولة كانوا من صنائعهم واتباعهم لدرجة ان الرشيد وجد صعوبة كبرى في العثور على رجال ممن لم تكن لهم صلة بهم ليتولوا بعض شؤون الدولة .

تميز الوجود السياسي للبرامكة بثلاث مميزات هي :

اولا : لقد عمرت هذه الاسرة طويلا بالمقارنة مع الوجود السياسي لمن سبقهم او عاصرهم مثل ابو مسلم الخراساني .

ثانيا : التطور السياسي لهذه الاسرة الذي يبدو انه مدروس و مخطط له . فهو يبدأ بدور عادي في الحركة العباسية ويتطور الى تولي بعض المناصب في الدولة ثم تتغلغل الاسرة في صميم البيت العباسي بمعنى ان هذا التطور بدأ تصاعديا من مجرد اداء منفذة الى التدخل في رسم سياسة الدولة.

ثالثا : الاستمرارية في العلاقات الجيدة مع الخلفاء باستثناء فترات تعرضت فيها الاسرة لبعض المضايقات .

بلغ اوج هذه الاسرة في حياة الخيزران والدة الرشيد فلما توفيت عام (173 هـ / 789 م) بدأت ثقة الخليفة بأفرادها تهتز حتى نكل بهم .

اختلف المؤرخون في تحديد اسباب نكبة البرامكة ويبدو ان هذا الاختلاف ناتج عن تحديد الدور الذي اداه هؤلاء حيث تعصب الرواة لهم او عليهم بالاضافة الى تكتم الرشيد حول هذه الاسباب .

والراجح ان هذه الاسباب تعود الى دافعين رئيسيين ، سياسي و مالي .

فمن حيث الدافع السياسي فقد اتضح للرشيد بعد مضي سنين على ظهورهم ان البرامكة اضحوا يشكلون خطرا فعليا على دولته وقد كون هذا الانطباع بفعل عدة عوامل لعل ابرزها ميلهم الى العلويين وميولهم العنصرية .

لقد اظهر البرامكة ميولا سياسية نحو العلويين ، ويرتبط تاريخهم بتعاطفهم مع يحيى بن عبد الله العلوي ، واحمد بن عيسى بن زيد ويتعارض ذلك مع العلاقات العدائية بين العباسيين والعلويين .

اما فيما يتعلق بميولهم العنصرية الفارسية فيبدو ان الامر غير واضح تماما بفعل قلة المادة التاريخية لكن شدة حساسية الرشيد تجاه تصرفات البرامكة واستئثارهم بالامر دونه قد ضخمت عنده هذا الامر . فكان الجو العام اقرب الى الاتهام حتى في دقائق الامور لكن لا يخفى ان العناصر الفارسية في المجتمع العباسي كانت متهمة دائما في ولائها .

ومن حيث الدافع المالي فقد استبد البرامكة بمالية الدولة وتحكموا بالامور كلها حتى قيل ان الرشيد (يحتاج الى اليسير من المال فلا يقدر عليه) في الوقت الذي كان البرامكة يسرفون في النفقات وقد قيدوا الخليفة في هذا التصرف المالي كما كبلوه في تصرفه السياسي .

يضاف الى ذلك ان الوشاية قد ادت دورا اخر في التأثير على الرشيد للإيقاع بهم اذ حاول خصومهم انتهاز كل فرصة لإيغار صدره عليهم ، وإثارة شكوكه في تصرفاتهم .

ومهما يكن من امر فقد قتل الرشيد جعفرا في الليلة الاولى من شهر صفر في عام (187 هـ/803م) و سجن يحيى وبقية ابنائه وصادر ممتلكاتهم و اموالهم وتوفي يحيى في عام (190 هـ / 805 م) والفضل في عام (193 هـ / 808 م) .

هكذا كانت نهاية البرامكة وهي رمز للتضارب بين سلطة الوزراء وبين سلطة الخلفاء كما انها دليل على التباين بين مصلحة هؤلاء وميول اولئك وتشكل العلاقة بينهم وبين الرشيد احد فصول العلاقات بين العباسيين والعناصر الفارسية التي حكمتها تطلعاتها السياسية .